

حجاجية الشاهد الهويّاتي في كتابات البشير الإبراهيمي

"دراسة نماذج من عيون البصائر"

The Argumentary Of Identity Witness in Al-ibrahimi Discourses.

د. صفية مكناسي¹

جامعة أمحمد بوقرة بومرداس

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله و مرجعياته و آفاقه في الجزائر-جامعة ابن خلدون-تيارت

Mak-s@hotmail.fr

الملخص:

يعتبر أدب الإبراهيمي وبالتحديد تلك العيون التي أبانت عن كونها كذلك من أرقى الفنون الأدبية الجزائرية لما تحوزه من أسلوب جميل، ومعنى جليل، وهدف نبيل، ورأي أصيل، وقوة على التّديل، وكأنّ صاحبها خلّق لعصر الاحتجاج، فتحكّمه بناصية اللّغة والأسلوب الرصين على الاستدلال، والمرجعية الأصلية في استلهاهم الشّواهد الثقافية والحجج وطرائق عرضها في لبوس الثوب القشيب، وآليات نسجها في بناء منسجم الدلالات متسق الألفاظ والمعاني، كلّها آليات وقّعت لاندرج هذا الأدب في خانة الأدب الحجاجي الجدلي؛ الأمر الذي حفّز هذه الدّراسة على الانبعاث لما تزخر به هذه الطفرة الأدبية من مقومات حجاجية وركائز استدلالية.

انطلاقاً من كون أدب الإبراهيمي أدب مواقف و مقاصد و أهداف ما دام يقصد الإصلاح و يرنو النّهضة و الحض و الحث، كيف كان دور الشّاهد الهويّاتي رافداً من روافد الإقناع، مساهماً في تحقيق مقاصد الخطاب التّهضوي في كتابات البشير الإبراهيمي؟

الكلمات المفتاحية: فن القول-الشاهد-الهوية-الحجاج-الإقناع.

Abstract:

The literature of El-Ibrahimi and specifically those eyes that have shown that it is also one of the finest Algerian literary arts because of its beautiful style, noble sense and goal, and his control of a powerful language and style in his reference in the inspiration of the cultural evidence and arguments and methods of its presentation in acute clothing and its weaving mechanisms in the construction of harmonious semantics consistent words and meanings are all mechanisms for the inclusion of this literature in the field of argumentative literature, which stimulated this study on the emission of what this Literary boom constitutes of argumentative ingredients and basic references. how was the role of the witness identity of the tributaries of persuasion, contributing to the realization of the purposes of renaissance discourse in the writings of Al-Bashir Ibrahimi.

Key words: literary arts, authentic opinion, signification, argumentative ingredients, persuasion

¹ المؤلّف المرسل: صفية مكناسي الايميل: Mak-s@hotmail.fr

تمهيد

اعتمد الإبراهيمي مجموعة من المرتكزات والقيّم الاجتماعية ليتمكّن من تحقيق الغاية المرصودة من خطابه، وقد ساهمت هذه المرتكزات والقيّم المجردة والمادية في تسهيل مسلك الخطاب نحو الأنفس والأفئدة لما تحتله من مقبولية وتحوز عليه من ميثاق تواصل، وعليه فالقيّم توظف في التّظريّة الحجاجية بوصفها قواعد حجاجية (Règles argumentatives) يتمّ استدعاؤها لكي تحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى، كما أنّها تُستدعى خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعلها مؤكّدة ومقبولة من طرف الآخرين¹¹.

تجلت هذه المرتكزات والقيّم في مجموعة من الآليات التي يتخذها أي مجتمع قاصدا السير نحو الرقي والازدهار، أو على الأقل التّظلل في رحاب العيش الزهيد الشريف المسيّج بإطار الإنسانيّة؛ ومن هذه المرتكزات التّعليم، والحرية، والعقيدة، والأخلاق، والوحدة والوطنية.

الشاهد الهوياتي ومقصديّة الخطاب

يرتكز الخطاب النهضوي على جملة من المبادئ و القيم تكون محط قبول و اتفاق بين الناس، و هذا القبول هو الذي يحقق مشروعيتها لتكون الدليل على الانتماء، و هذا ما يخوّل لها أن تشكل معالم الشاهد الهوياتي، لأنّ "الشعور بالهوية يتكوّن ضمن سياق تفاعل الذات بمحيطاتها الاجتماعية و ارتباطاتها العقائدية و الإيديولوجية داخل الثقافة العامة التي تسم مجتمعا من المجتمعات"² فالقيّم هنا مجموعة عناصر حجاجية جاهزة تُسند إليها مهمة التأثير بوصفها موضع اتفاق وتسلّم، ولا خلاف غالبا حول مضمونها ومكانتها لحياتها على الدّور الفعّال في بناء الثّقة بين المتحاورين³.

بالإضافة إلى القيم والمرتكزات هناك المواضيع التي هي بمنزلة الآليات التّحتية التي تسمح بإنجاز التّشاطر الحجاجي في اللّغة، وذلك من خلال العلاقة التي تنسجها مع العامل أو الرابط الحجاجيين²⁴، والموضع عند "موشلير" قاعدة تمكّن من إنجاز نشاط حجاجي جزئي⁵.

إنّ الانتقال في الحجاج من المقدمات إلى النتائج يستند إلى الموضوع⁶ وترتبط المواضيع بالآراء والمعتقدات المشتركة بين الأشخاص أو ما يعرف بالرأي العام، حيث "إن الهوية إذا كانت إحساس الأنا بالانتماء سواء كان هذا الأنا فرديا أو جماعيا، فإنّه لا يتحدد إلّا بالآخر"⁷ وهذا التقاطع و الانتماء و الغيرية هو ما يحدد كينونة الوجود الفردي.

¹-CH.Perelman, L.O.Tyteka, Traité de l'argumentation, p: 99.

²-محمد نوة الدين أفاية، الهوية و الاختلاف "في المرأة الكتابة و الهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص: 20.

³- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص: 84.

⁴-الراضي رشيد، الحجاجيات اللّسانية عند أنسكومير وديكرو، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد الأول، المجلد 34، سبتمبر 2015 ص: 237.

⁵-Moechler, argumentation et conversation, hatier paris 1985 p: 68.

مرتكزات الخطاب النهضوي عند الإبراهيمي

بحكم الفترة الاستعمارية التي عاشتها الأمة الجزائرية وتمخضت عنها نشوء الحركة الإصلاحية، فقد تغيّرت جملة من المفاهيم وحادت عن قاموسها الطبيعي إلى الاصطلاح الاستعماري منها مفهوم الديمقراطية والحرية التي خضعت لسياسة الكيل بمكيالين بين الشعبين المستعمر والمستعمر، فإنّ الإبراهيمي انطلق من هذه المستجدات المستحدثة والمفاهيم المنحرفة عن أصلها في الرأي العام قصد الاحتجاج على بطلانها، وذلك بالرجوع إلى مفهومها الأصلي كحجة جاهزة وموضع له مقبولة موثوقة، «لأنّ الانتقال في الحجاج من المقدمات إلى النتائج يستند إلى المواضع، والمواضع لا تستمد مقبوليتها من صورتها الاستدلالية، وإنّما من ارتباطها بالآراء المشتركة العامة»⁸، فالمقبولية هنا تحققها جملة من الثوابت المشتركة التي تؤسس الانتماء، وكذلك الاعتقاد المشترك و المسلمات بين الجماعات التي تبني المجتمع الواحد، و إذا تحدّثنا عن هذه الثوابت سنتحدث عن مفهوم الوطن و الوطنية، عن مفهوم اللغة و الهوية، عن مفهوم الديمقراطية، و غيرها من المسلمات.

1. الوطن، الوطنية

اعتمد الإبراهيمي مفهوم الوطنية المستلهم من الوطن الدال على الاستقرار، والالتزام والثبات، والانتماء ليصحح العقائد التي أفسدها المستعمر، والظنون والمفاهيم التي غيرتها معاملاته بسياسة التّرهيب كقيمة أو ركيزة من الركائز الحجاجية قصد تثبيت المفاهيم على معانيها الأصلية المنحدرة عنها، وليجدد بذلك العزم على الاستنهاض لمجاهة العدوان على هذا الوطن؛ وقد راح مناشدا تلامذة الزيتونة والقرويين في كلماته الثلاث الصّريحة والنّاصحة قائلا: «أنتم يا أبناءنا بواكير نهضة علمية قد أظّل زمانها، وجاء إبانها، وظهرت تباشير فجرها الصادق، ولمعت مخايل مزنها الوادق، والعلم إن كنتم لا تعلمون هو أساس الوطنية، وقطب رحاها ومركز دائرتها ودليل سيادتها»⁹، فبالعلم تحقّق الوطنية الحقّة، وتسير الأمم نحو الازدهار والرقي، وبالعلم يجابه الطغيان والظلم وتنتشل الوطنية من غياهب الظلام والسواد.

يسترسل الإبراهيمي قصد ترسيخ مفهوم الوطنية مبينا الحقائق قائلا: «لا حقّ لكم على الوطن، بل الحقّ كلّ للوطن عليكم، وإنّ أؤكد حقوقه عليكم أن تحقّقوا بالعلم مطالبه وتعمروا بالعلم جوانبه، وتنبؤوا بالعلم غياهبه»¹⁰، ثمّ يأتي بهذا التشبيه البليغ في توصيف الوطنية وتزينها في الأفتدة والتّفوس، مبينا سبل انتحالها وطرائق انتحالها قائلا: «إنّ الوطنية لعقيلة كرام لا يساق في مهرها بهرج كلام، وكريمة بيت لا تنال بلو و لا بليت»¹¹، إنّما الوطنية تنال بالعلم والعمل والتّضحية والفداء، وكلّ تبعات الإخلاص والتّقوى لبارئ الوطن وخالقه.

⁶ - المرجع السابق، ص: 237

⁷ - بول ريكور، الهوية السردية، دار التنوير، بيروت، لبنان، 2009، ص: 20.

⁸ - الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ص: 237.

⁹ - المصدر نفسه، ص: 350.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص: 350.

¹¹ - الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 350.

ينتقل الإبراهيمي من الحديث عن الوطنية والانتماء الذي يجب الإيمان به في مسيرة النضال، والثورة عن تلك المفاهيم المستجدة والمنحرفة عن أصولها إلى قضية هامة تمس بالوطنية وتزعزع استقرارها في الأفئدة المغلوب على أمرها، وهي الدعوة إلى فرنسة الجزائر واعتبارها قطعة منها، «وليس تاريخ ولادة هذه الجملة بالقديم، ولا هي من الجمل المألوفة لألسنة هؤلاء الخطباء ولا لأسماع الجمهور الخاص الذي سمعهم، وإنما هي بنت سنة أو سنتين على الأكثر»¹².

يشدد الإبراهيمي على نايبة هذه الكلمة وبشاعتها في الأسماع عند الوطنيين الأحرار قائلا: «كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبارين محاده لله ولقدرته وحلقه ومضادة لدينه وسنته، وطمسا لحقائق التاريخ والآداب وأصول الأجناس، وعنادا للطبيعة والأوضاع الجغرافية، ونكرانا للفوارق الملموسة من الدم الجاري، والإرث الساري، والتقاليد المتسلسلة»¹³.

يستدعي الإبراهيمي هذه المواضع المستلهمة من الآراء المشتركة، والمعتقدات المسلم بها في الذهنية العربية الأصلية على الأقل باعتبارها قواعد أساسية يُستند إليها في دحض الأقوال والافتراءات الكاذبة حول كون الجزائر فرنسية أو أن يظن على الأقل أنها ستكون كذلك إلى درجة أنه «لو أنّ البحر الأبيض جفّ و التأمّت حافته حتى أصبحت الجزائر ريبضا من أرباض مرسيليا، لما كان لهذه الكلمة موضع في العقل مادامت تلك الفوارق قائمة، ولو أنّ الجزائريين كفروا بالواحد وآمنوا بالثلاثة لما كان لهذه الكلمة موقع في النفس، مادامت سنن الله في ملكه جارية، ولو أنّ حاكما حكم عليهم بقطع نسبهم من عدنان وإصافه باللاتان لم يكن حكمه إلا كحكم قاضي الجزائر في الصوم والإفطار، وحكم واليها في المولد النبوي ماداموا يدينون بالإسلام، وينتمون إلى ذلك النسب السامي العريق في الأصالة والشرف المحاط بالنبوة والتور»¹⁴.

يستشهد الإبراهيمي على قوله بثبوت جزائرية الجزائر رغم تلون حلقات التاريخ عليها بقوله: «لقد ملكها الرومان قرونا فلم تنقلب رومانية، وبادوا ولم تبد، وبقيت ولم يبق منهم إلا آثار الظلم ومعالم الطغيان، وملكها الأتراك فلم تنقلب تركية، وصبغها التاريخ الطويل بأصبغ مما تنفضه أدواره، فكان أثبتها على الزعازع وأبقاها على وجه الدهر صبغان زاهيان هما العروبة والإسلام»¹⁵، فالجزائر خلقها الله عربية مسلمة وستبقى عربية مسلمة إلى ما شاء الله، وهذه هي القيمة أو المرتكز الذي اتكأ عليه الإبراهيمي في الاحتجاج قصد إثبات مفهوم الوطنية وترسيخها في الأفئدة، حتى لا تحول بإمارات الاستعمار ولا نزول بطغيانه وجبروته.

2. الدين الإسلامي:

اتخذ الإبراهيمي من معاني الدين الإسلامي السامية دعامة لتذكية الخاصية الحجاجية لخطابه، وذلك باعتباره قيمة حجاجية تحظى بقبول قوي في العقل الجمعي عند المنتحلين له، وفي العقل الجمعي عند أصحاب الشرائع السماوية المنصفين، المؤمنين بحريّة الأديان والعقائد؛ وقد مثل الدين الإسلامي الركيزة - في دحض كلّ الأقوال المعادية له - التي يشدّ فيها كل من زلّت قدماه عن العقيدة بدافع الاستعمار أو بدافع غياب الوازع الديني.

¹² - المصدر نفسه ، ص: 386.

¹³ - المصدر نفسه، ص: 387.

¹⁴ - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، ص: 387.

¹⁵ - المصدر نفسه ، ص: 387.

راح الإبراهيمي يناشد القائمين على التعليم في الجمعية، قصد شحذ الهمم والعقول نحو الإسلام، بضرورة تحريض التلاميذ على التحلي بتعاليمه السمحة قائلا: «في وطنكم موجة من الإلحاد جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومهد لها في نفوس هذا الجبل جهله بحقائق الإسلام وضعف صلته بالله، وإنّ تساهلكم في إقامة شعائر الدين، أو استخفافكم بأحكامه معين على تفشي الإلحاد في الجيل الجديد الذي تقومون على تربيته، فاحذروا الظهور بمظهر المستخف بالدين ولو في فلتات اللسان، فإنّ لكلّ فلتة ولكلّ كلمة تصدر منكم أثرا في نفوس تلاميذكم، لأنّكم محل القدوة عندهم ولأنّ زمنهم يتبرع بالباقي، فإذا وجد العون منكم كان أجود بالشرّ من الريح المرسلة»¹⁶.

يستشهد الإبراهيمي عن حال الإسلام إبان ضعف أبنائه بأيام قوّته وبطش أبنائه المبني على الحقّ قائلا: «كان الإسلام عزيز الجانب منيع الحمى يوم كان يدافع عن نفسه بروحانيته القويّة، وحقائقه الواضحة، وعقائده الصّافية، وأحكامه السمحة وآدابه القويمة وحكمه المتحكمة في العقول، وكان يدافع عنه جند من أبنائه عرضهم على ميزانه فرجحوا واستعرضهم فنجحوا، وامتنح قلوبهم للتقوى فتكشّفوا عن الطيب والطهر، وتلاقت العقائد الصّريحة والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء، فظلّ الإسلام الكون بعدله وسماحته، وكان له في المشارق والمغرب مستقر ومستودع، وعلا بذلك على الأديان فجلّلتها بالأمان، وأجارها من النسيان وجاورها بالإحسان، فلما ضعف سلطانه على نفوس أبنائه ضعف سلطانهم على الأرض، فاختلف فتلاشى ذلك يوم أصبح قرآنه أغاني على الألسنة لا أشفية للصدور، وأحاديثه للتلهية والتّغريب لا معادن للأحكام والأخلاق»¹⁷.

يستدل الإبراهيمي من خلال هذا العرض لحال الإسلام أيام القوّة وأيام الضعف على أنّ ما وصل إليه حال المسلمين، وحال دينهم مردّه إلى تماوتهم واستخفافهم بأحكامه وعقائده، فلما هان عليهم هانوا على أنفسهم وعلى أعدائهم، فأصبحوا لقمة سائغة للدئاب المفترسة، ومن خلال هذا القول الحجاجي المعتمد على هذه القيمة والركيزة الروحية يحاول الإبراهيمي شدّ الأنفس إلى ضرورة معاودة التحلي بتعاليم الإسلام السمحة، إذا أرادوا عزّته ووقاره ومن ثمة عزّتهم وكرامتهم، فتعزّ بذلك أنفسهم وتناهى عن الهوان، وترتقي من الدرك الأسفل إلى أعالي الشرف والكرامة التي عرفها وعاشها أبائهم وأجدادهم يوم كان الإسلام عزيز الجانب منيع الحمى بأيدي أبنائه؛ ليكون «الإبراهيمي من هذه الحقائق صخرة من معدن الحقّ تنكسر عليها أمواج الباطل»¹⁸.

ثمّ يأتي الإبراهيمي بالحديث عن معاناة الدين الإسلامي جرّاء هذه الحال من ويلات المستعمر، ومن استخفاف واحتقار من أتباعه وأبنائه بتحريض منه «ويا عجباً لما تصنع هذه الحكومة ببعض الرجال منا، تعتمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سحنته ولكنها تفرغه من سحنته، وتفرغه من معاني الإسلام والغيرة عليه والطيرة له، والدفاع عنه والاعتزاز به وتملؤه بمعاني أخرى منها الإفك والزور، ومنها الأنانية والغرور، ومنها الاستخفاف بالإسلام والاحتقار للمسلمين»¹⁹. فكيف لا يهون الإسلام على أعدائه، وقد هان على أتباعه، ليرمي الإبراهيمي هنا إلى البعد الحجاجي من القول برمته والمتمثّل في دهاء الاستعمار حين محاربه موطن القوّة عند المسلمين ومكمن العزّة ومبعث الجأش والعزم عندهم وهو الدين الإسلامي.

¹⁶ -الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 298.

¹⁷ -المصدر نفسه، ص: 136.

¹⁸ -عباس محمّد، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، ص: 125.

¹⁹ - الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 136.

يبين الإبراهيمي في موضع آخر سماحة الدين الإسلامي مع جميع الأديان، وحسن مجاورته لهم ليستدل على مرتبته، وارتفاع شأنه داحضا بذلك قول القائلين بأن فتحه للبلدان استعمار، قصد كسر شوكة المستعمر في انتهاجه سياسة "فرق تسد" بين الأخوين العرب والبربر، وقد شهد شاهد من أهلها، «فمن شهد أنّ البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الحوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لها البربرية في بعض قرن»²⁰.

حَقَّكَ بَتَّ المَبْطِلِينَ وَتَبَّكَ

بُورَكَتْ يَا دِينَ الِهْدَى مَا أَثْبَتَكَ

وَالفِكْرَ بَعْدَ العَقْلِ مِنْ جُنُودِكَ²¹

وَالعَقْلَ -مِنْذَ كُنْتَ- مِنْ شَهُودِكَ

هكذا اتخذ الإبراهيمي من الدين الإسلامي مرتكزا وقيمة روحية وعقلية وفكرية في معالجة الأنفس التي زاغت عن أحكامه وعقائده، حتى يتمكن من مجابهة الأعداء ومحاربة الطغيان، كما استلهم منه الحجّة الداحضة على عدله وسماحته، ومن ثمّ حجّة أخرى قويّة وداحضة للظلم والاستبداد الممارسين من طرف المستعمر، فالدين الإسلامي كان القاعدة الصحيحة والمرجع الأصيل لجمعية العلماء المسلمين في حركتها التّهضوبية نحو الإصلاح والتّشديد.

3. العلم والتّعليم:

يشيد الإبراهيمي بمكانة العلم والتّعليم في حياة الشّعوب والأمم كقيمة روحانية تغذي العقول وتيسر السبيل نحو التقدّم والازدهار، وقد اعتمده ركيزة في خطابه الحجاجي للاستدلال على مكانته ودوره الفعّال في تحرير الشّعوب من ظلمات الاستبداد، ونظرا لهذا الدور فإنّ المستعمر أول ما انتهج هو سياسة التّجهيل، والأمية التي تفتّشت في رباع المعمورة الجزائرية، وانطلاقا من هذا الوضع فقد كان ديدن الحركة الإصلاحية طرائق تحصيل العلم والتّعليم، لإبقاء هذا السراج منيرا في حياة الأفراد، وقد ذهب الإبراهيمي في كلمته الواعظة للمعلمين قائلا: «ربوهم على بناء الأمور على أسبابها والنتائج على مقدّماتها علما وعملا، واعلموا أنّ العلم يبدأ مرحلته الأولى من هذه البسائط التي تقع عليها حواسكم في الحياة كلّ لحظة فتحتقرونها ولا تلقون لها بالا، مع أنّ مجموعها هو العلم إذا وجد ذهننا محلّلا، وهو الحياة إذا وجدت عقلا مفصلا...أمزجوا لهم العلم بالحياة والحياة بالعلم يأت التّركيب بعجيبة»²².

عانى التّعليم العربي في الجزائر من شتى أنواع التّضييق، وجلّ أجناس التّحريشات نظرا للفهم المختلف بين الشّعبين السيد والمسود، يقول الإبراهيمي لقد كان: «بيننا وبين الحكومة خلاف ينتهي إلى التّضاد في فهم معنى التّعليم العربي سببه اختلاف أداة الفهم فيها وفيها، فهي تفهمه بالذهنية الاستعمارية العنصرية المتأثرة بالسيادة والاستعلاء، وتراه بالعين التي لا ترى إلّا مصلحتها فتحتاط وتبالغ في تقدير العواقب، وتعمى عن مصالح غيرها وإنّ كانت كالجبال ضخامة، وكالشمس وضوحا وكالعقلية ثبوتا

²⁰ -المصدر نفسه، ص: 222.

²¹ -المصدر نفسه، ص: 549.

²² - الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 300.

ونحن نفهمه بالذهنية القومية الوطنية، ونراه حقا لا يعنى عليه ذو بصر ولا يدفع بالمغالطة، ولا يتحقق بمثل ما احتوى عليه هذا القرار الفارغ المتناقض²³.

انطلق الإبراهيمي من هذا الموضوع الذي اختلفت فيه النظرتان للشّيء الواحد ليستدل على قيمة العلم في حياة الأمة وخطورته على الاستعمار الذي ما فتى يسرّ القوانين، ويشرعها بكرة وأصيلا خشية إفاقة هذه الأمة من غفوتها فتقلب عليه الموازين، منتهجا في ذلك أسلوب مواجهة الحقائق بأقرانها الذي ينم عن قاعدة الاستدلال المعتمدة في بعض الأباطيل ومقارعتها بالحقائق²⁴.

جّراء هذه القوانين الجائرة والتشريعات الظالمة ينه الإبراهيمي على خطورة الوضع وصعوبة السبيل إلى العلم قائلا: «إنّ طريق العلم مخوف بالعوائق من مقت يحيق ووقت يضيق، وإنّ الأقدار وضعت في طريقكم إلى العلم عائقا جديدا، وهو شرّ العوائق وأضرها، وهو هؤلاء الدعاة الغاشون، والسماصرة المضلون يدعونكم ليصدوكم عن العلم، وإلى الحزبية ليفرقوكم عن الجماعة، وإلى الوطنية ليشغلوكم باسمها عن حقيقتها، ويلهوكم بلفظها عن تحصيل أقوى وسائلها وهو العلم»²⁵، واجتنبنا لهذه العواقب يشدّد الإبراهيمي اللّهجة داعيا إلى ضرورة الحرس على التسلّح بالعلم قائلا: «العلم العلم أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب ينفخ في ميزان ولا داعية انتخاب، إنكم إن أظعتم هؤلاء العواه خسرتم أنفسكم، وخسرتم وطنكم وستندمون يوم يجنى الزارعون ما حصدوا و لات ساعة ندم»²⁶.

يقدم الإبراهيمي خلاصة التحلي بالعلم لتذكية البعد الحجاجي للخطاب المعتمد على هذه الركيزة الاجتماعية الهامة في حياة الشعوب، والأمم قصد إشعال فتيل التهضة في النفوس نحو التّضال، لمجاهة قوّة الطاغوت والجبروت قائلا: «إنّ القوم لا يدينون إلّا بالقوّة فأطلبها بأسبابها وآتها من أبوابها، وأقوى أسبابها العلم وأوسع أبوابها العمل فخذها بقوّة تعيش حميدا وتمت شهيدا»²⁷.

من هنا فقد كانت هذه القيمة الاجتماعية -العلم- مثيرا قويا في القول الحجاجي عند الإبراهيمي، الذي كان يقصد الالتفاف حول الخطاب والإذعان له، وقد اعتمد هذه القيمة من مكنم وقوعها ركيزة أساسية في المعتقد الإنساني المشترك، وإنّ اعتماد الحقائق في المقام الخطابي أو الكتابي الذي يرنو الحجاج يعدّ أساسا أوليا من أسس الإقناع، وتعبيرا عن وجود فعلي أو متوقع²⁸ والعلم يعدّ من الحقائق والمسلمات التي أقرت بما جلّ التشريعات الدينية والدينيوية، ليعلّل بهذا الإبراهيمي ويفسّر مخلفات هذا التمسك مستندا في ذلك إلى القضايا العلمية والحقائق الواقعية في تبرير الحقوق²⁹.

²³- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 312.

²⁴- عباس محمد، البشير الإبراهيمي أديبا، ص: 126.

²⁵- المصدر السابق، ص: 350.

²⁶- المصدر نفسه، ص: 350-351.

²⁷- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 422.

²⁸- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، ص: 84.

²⁹- عباس محمد البشير الإبراهيمي أديبا، ص: 128.

4..اللغة العربية:

استدعى الإبراهيمي الحديث عن الركيزة اللسانية في الشمال الإفريقي في خطابه التّهضوي للاستدلال على أنّ وجودها أصلي في الجزائر، وليست دخيلة لدحض أقوال القائلين بأنّها مخلقة استعمار الإسلام لبلاد البربر قائلا: «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حمائها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل، ممتدة في الماضي لأنّها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد، وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح مادام الإسلام لا يتزحزح، ومن ذلك بدأت تتغلغل في النفوس وتتسارع في الألسنة و اللّهواة وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدا طيبا وعدوبة أنّ القرآن بها يتلى، وأنّ الصلوات بها تبدأ وتختتم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتّى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس و الشّواعر وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا»³⁰.

يقيم الإبراهيمي للغة العربية تثبيتها في التاريخ وعراقتها في القدم، ويبين قوّة ترابطها الأبدى مع الإسلام الذي يمدّها حيويته، ويغذيها بروحانيته ممّا زادها هيمنة على المشاعر ووقعا فطريا في النفوس³¹، ثمّ يدعم قوله الحجاجي هذا بحجج أخرى أقوى لدحض الادعاءات الكاذبة، ويبين مزايا اللّغة العربية على أهل الجزائر الأصليين، حيث «عرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون وسعت إليها حكمة يونان تستجديها البيان، وتستعديها على الزمان فأجدت وأعدت، وطار إلى البربر منها قيس لم تكن لتطيره لغة الرومان، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزّت، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كلّ ذلك باختيار لا أثر فيه للحبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار، وكذب وفجر كلّ من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا، وإنّما هو راحة من الهمّ النَّاصب، ورحمة من العذاب الواصب وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض»³².

يدعو الإبراهيمي من خلال هذه الركيزة الاجتماعية الهامة الأمة الجزائرية إلى ضرورة التمسك والمحافظة على هذا المعلم والصّرح الأساسي في حياة القومية العربية قائلا: «لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها وحافظة دينها ومصححة عقائدها ومدونة أحكامها، وصلة بينها وبين ربّها تدعوه بها وتعترف وتبوء بها إليه فيما تقترف وتؤدي بها حقوقه، وهي لغة العرب، ذلك لأنّ لغة العرب قطعة من وجود العرب، وميزة من ميزات العرب ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة، فإذا حافظ الزنجي على رطانته ولم يبيع بها بديلا، وحافظ الصيني على زمزرتة ولم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحقّ لأنّ لغته تجمع من خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه في لغة الزنج أو لغة الصين، ولأنّ لغته كانت في وقت ما لسان معارف البشر، وكانت في زمن ما ترجمان حضارتهم، وكانت ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت في وقت ما هادية العقل الغربي الضّال إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت في جميع الأوقات مستودع آداب الشرق وملتقى تياراته الفكرية»³³، فلولا هذه المكانة

³⁰-الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 221.

³¹-عباس محمد الإبراهيمي أديبا، ص: 125.

³²-المصدر السابق، ص: 221.

³³-الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 310.

لما كانت اللغة العربية أولى أهداف الاستعمار في الإبادة والتّحطيم، و الإبراهيمي من خلال هذه الحجج والأدلة يدعو إلى ضرورة المحافظة على لغة الإسلام والتّمسك بها، لأنّها معلم وجوده، وصرح بنائه الفكري والثّقافي، وجسر تواصله مع بني جنسه.

5.. القومية العربية:

اعتمد الإبراهيمي عروبة الشّمال الإفريقي مرتكزا وقيمة اجتماعية وتاريخية للاستدلال على النوايا الخبيثة للاستعمار في التفريق بين الجنسين الذين جمعهما الإسلام، وشكّلتها اللغة العربية لحمة واحدة، حيث «ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول ويعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية وقتل الموجود بالمعدوم ليتمّ له ما يريد من محو واستئصال لهما معا، وإنّما يعتمد العربية بالحرب لأنّها عماد العروبة وممسكة الدين أن يزول، ولأنّ لها كتابة ومع الكتابة العلم، وأدبا ومع الأدب التّاريخ ومع ذلك البقاء والخلود، وكلّ ذلك مما يقض مضجعه ويُطَيّر منامه ويصخ مسمعه ويقصر مقامه»³⁴.

يقوي الإبراهيمي استدلاله على القضية بتقديم حجج وبراهين دامغة مستلهما إياها من التّلاعب الاستعماري في القضية بحسب ما يخدم مصلحته، حيث من أباطيله وتهافته «أنّه يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا، ويلحقه بنسبه ويساويه به في حقوقه ومميزاته، ثمّ ينكر على البربري مثلا أن يكون عربيا بعد ما مرّت عليه في الاستغراب ثلاثة عشر قرنا وزيادة، وبعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلا من أجداده على الاستغراب، لا يعرفون إلاّ العربية لغة يتكلمون بها، ويتأدّبون ويتعبّدون، فليت شعري أيهم أقرب إلى الواقع البربر المستعرب أم السوداني المفرنس؟ وأيهم أنفذ أحكم الله أو حكم الاستعمار؟»³⁵، أم أنّها سياسة "فرق تسد" المفضوحة على أمرها.

يعتمد الإبراهيمي القومية العربية صرحا يحاول من خلاله دعوة العرب قاطبة إلى الالتفاف حول كلمة الحقّ، والعدل والاتحاد في القول والعمل، من أجل توحيد الرأي وتقوية العزيمة في ردّ المظالم لهذه العروبة المظلومة من أبنائها قبل أعدائها، فقد ظلّموها يوم فرّقوا شملهم فضعف سلطانهم ونسوا وتناسوا «أنّ العروبة جذم بشري من أرسخها عرقا وأطيها عذقا عرفه التّاريخ باديا وحاضرا، وعرف فيه الحكمة والتّبوة، وعرفته الفطرة لأول عهودها فتبنته صغيرا وحالفته كبيرا»³⁶.

من القضايا العربية التي أفضت مضجع مناضلي جمعية العلماء المسلمين قضية فلسطين الجريحة، وقد اعتمدها الإبراهيمي في خطابه التّهضوي الدّاعي إلى الاتحاد حولها كركيزة وحقّ يجب الدفاع عنه حتّى الاستماتة أو رده إلى أصحابه في قوله: "يا فلسطين إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري لك يا فلسطين حقّ واجب الأداء وذمام متأكد الرعاية، فإن فرّط في جنبك أو أضاع بعض حقك فما الذنب ذنبه، إنّما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه والمرء وداره، والمسلم وقبته"³⁷.

³⁴ -المصدر نفسه، ص: 474.

³⁵ - الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 480.

³⁶ - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 35.

³⁷ - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 491.

ينادي الإبراهيمي -بمحصرة- على ما آلت إليه البلاد المباركة حتى يلامس الأفئدة العربية ويحرك مشاعرها بنيران الأسف والعار نحو الاستنهاض قائلا: «يا بحس فلسطين، أبيعها من لا يملكها ويشترها من لا يستحقها؟ يا هوان فلسطين، أكون من ذوي الحق في بيعها تلك الدويلات التي لم تخلق خلقا طبيعيا، وإنما خلقتها المنافسات، والتي لم يبلغ الكثير منها جزءا مما بلغته فلسطين من مجد في التاريخ، وسابقة في الحضارة، ويد في نفع البشرية، بل لم تبلغ مجتمعه ما بلغته فلسطين من احتضان النبوت، واستنباط الشرائع والعلوم والحكم»³⁸، فأين العروبة التي كانت تهابها الجبابرة في الحصون من هذه البيعة الشنيعة؟ إن الإبراهيمي حين تناوله للقضية الفلسطينية إنما يتناولها بروح معدبة، وبانفعال، وبلهجة صارمة قانطة تبعث على الاستنفار، وهز الأنفس الجامدة³⁹، وشحذها نحو الالتفاف على القضية، ومعايشتها والاكتواء بنارها من طرف كل العرب، ففلسطين ليست للفلسطينيين فقط، وإنما هي قبة كل العرب، وبهذه الحقيقة يحتج الإبراهيمي للقضية ويحاول غرسها في الأفئدة.

خلاصة:

تلكم إذن غيض من فيض من القيم والمرتكزات التي استعان بها الإبراهيمي في خطابه قصد تذكية البعد الحجاجي فيه، وتحصيل القبول والإقناع من خلال هذه التضمينات لهذه المعالم والمواضع الاجتماعية، والدينية والعلمية، والثقافية من خلال استمالة صفة القبول التي تحوزها في استحلاب مواطن الإقناع، والوقوع عليها في الأفئدة والنفوس انطلاقا مما تضيفه هذه المرتكزات من قبول وإمكانية إذعان؛ فالإبراهيمي من خلال هذه الاستعمالات يرنو تأييد صرح الخطاب الحجاجي النهضوي وتذكية معالم الإصلاح، وإشغال فتيلها في أنفس وأفئدة الأمة الجزائرية، ومن خلفها الأمة العربية بشكل خاص والمسلمة بشكل عام لمواجهة طعنات السنون، ولتشخيص وتثبيت معالم الوطنية، والهوية والانتماء، وغرس الأبعاد الروحية والدينية في أبناء الأمة الجزائرية العربية المسلمة.

³⁸-المصدر نفسه، ص: 491.

³⁹-عباس محمد، البشير الإبراهيمي أدبيا، ص: 344.

المصادر و المراجع:

- 1 - الإبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، شركة دار الأمة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 2 - بول ريكور، الهوية السردية، ترجمه حاتم الورفلي، دار التنوير، بيروت، لبنان، 2009.
- 3 - عباس محمد، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر.
- 4 - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2008م.
- 5 - محمد نوة الدين أفاية، الهوية و الاختلاف "في المرأة الكتابة و الهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- 6 - Moechler, argumentation et conversation ,hatier paris 1985.
- 7- CH.Perelman, L.O.Tyteka, Traité de l'argumentation.editions de l'universite de bruxelles ;preface de michel meyer ;5 edition.
- 8 - الراضي رشيد، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد الأول، المجلد 34، سبتمبر 2015.